في التاريخ السياسي

مصر وإيطاليـــا

عبر الماضي دلائل الحاضر

بقلم باحث دبلوماسي كبير

لما كشفت إيطاليا الفاشستية في أوائل سنة ١٩٣٥ عن نياتها الاستعمارية نحو الحبشة توجس أولئك الذين يشفقون على حريتهم وحريات الشعوب الآمنة شرا ، واستشعروا الخطر الاستعماري جاثماً وراء تأكيدات رومة بأنها لا تبغي من وراء أهبتها العسكرية سوى الدفاع عن أملاكها الأفريقية . ولم تمض أشهر قلائل حتى صدق الظن ووثبت إيطاليا بالحبشة وثبتها المعروفة ، واستشهدت ضحية جديدة من ضحايا الاستعمار

وكان لهذه المأساة الاستعمارية في مصر وقع خاص ؛ ولم يكن ذلك فقط لأن مصر ترتبط مع الحبشة بروابط تاريخية قديمة ، ولها في الحبشة نفوذ ديني خاص بواسطة كنيستها القبطية ، ومنابع نيلها تقع في الحبشة ، ولكن لأن مصر شعرت على الأخص بأن خطراً استعمارياً جديداً قد استقر على مقربة منها ومن سودانها ونيلها ، وأن الفاششتية الطموحة المتوثبة قد أصبحت تطوق وادي النيل من ناحيتيه ، وأن استشهاد الحبشة على هذه الصورة المروعة إنما هو عبرة يجب أن يكون لها بالغ الأثر

وقد كانت المعاهدة المصرية الانكليزية التي عقدت في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ نتيجة محتومة لهذه المأساة ؛ ولم يكن في وسع مصر وبريطانيا العظمى أن يتجاهلا أهمية ذلك التطور الخطير في أحوال وادي النيل ؛ ولم يكن في وسعهما أن يمضيا بعد في نزاع طال أمده ، وأن يغفلا بذلك عن الخطر الذي تواجهانه معاً ؛ ومن ثم كان عقد المعاهدة المصرية الانكليزية عملا حكيما من الجانبين ، وكانت ضرورة أملتها الظروف والحوادث

والآن تبدو أهمية التحالف بين مصر وبريطانيا العظمى ؛ فتطور الحوادث في البحر الأبيض المتوسط ، وحالة التوتر التي تسود علائق الدول الفاشستية والدول الديمقراطية ، والكدر الذي يشوب علائق إيطاليا وبريطانيا ، وما تبديه الفاشستية الايطالية من بوادر التحفز والطموح ، وما تقوم به من الأهبات العسكرية في جزيرة بانتلاريا الواقعة بين تونس وصقلية ، وفي جزيرة رودس ، وما تحشده من القوات الجرارة في طرابلس على مقربة من الحدود المصرية : كل أولئك يجب أن يلفت الأنظار ، ويثير الريب ، ويقضي على أولئك الذين تعنيهم هذه الحالة أكثر من سواهم بالتيقظ والحذر والاستعداد

* * *

ولا ريب أن مصر في مقدمة الدول التي يجب أن تعنى بهذه التطورات ؛ بل هنالك ما يدل على أنها ليست بعيدة عنها ، وأنها لا تستطيع أن تطمئن إليها ؛ وليس ذلك فقط لأن الحوادث قد جمعت بين مصر وبريطانيا العظمى ، ووثقت بينهما في جبهة صداقة وتحالف دائمين ، ولأن الفاشستية الايطالية في خصومتها لبريطانيا العظمى لا بد أن تقصد إلى خصومة مصر في نفس الوقت باعتبارها حارسة لشريان من أهم شرايين الأمبراطورية البريطانية : نقول ليس ذلك فقط ، بل كذلك لأن الفاشستية الايطالية ليست بعيدة عن التفكير في مصر لذاتها

إن الفاشستية الايطالية تضطرم اليوم بأعظم الأحلام الأمبراطورية ، وترتد ببصرها إلى الأمبراطورية الرومانية ؛ وليست مصر في نظرها إلا كطرابلس ولاية رومانية سابقة . وما زلنا نذكر إشارة السنيور موسوليني في إحدى خطبه أيام الحرب الحبشية إلى مصر وقوله إنها كانت أهراء الغلال لرومة ، والفاشستية ترنو في حلمها الامبراطوري إلى مصر ، ولا سيما بعد استيلائها على الحبشة . وقد دلت على ذلك في مواطن عديدة ومناسبات كثيرة وهي تحاول منذ أعوام أن تقوي نفوذها ودعايتها في مصر بمختلف الوسائل ؛ وسواء أكانت الفاشستية ترنو إلى مصر من خلال خصومتها لانكلترا ، أو كانت تقصد إليها بالذات كحلم استعماري رائع يمكن تحقيقه ، فان الذي لا ريب فيه هو أن مصر تواجه اليوم مرحلة من أدق مراحل تاريخها

ولقد توالت من خلال هذا القلق الشامل تصريحات المقامات المسئولة في رومة بأن إيطاليا الفاشستية لا تضمر شراً لمصر ولا يمكن أن تفكر في الاعتداء عليها ، وأنها بالعكس تشعر نحوها بأكرم عواطف الصداقة والود ؛ وأما الجيوش الجرارة التي تحشد

فى برقة ، وأما الأهبات العسكرية الهائلة التى تتخذ هنالك على مقربة من الحدود المصرية ، فليست سوى إجراءات تحفظية تقرر اتخاذها منذ بعيد . هكذا نسمع من رومة بين حين وآخر ، وهكذا أكد لنا السنيور موسوليني نفسه فى حديث أفضى به منذ أسابيع قلائل ، وهكذا يؤكد ممثل إيطاليا فى مصر للحكومة المصرية كلما أبدت دهشتها وتساؤلها من سير الأحوال فى برقة

بل هنالك ماهو أكثر من ذلك ، وهو أن الحكومة الإيطالية عرضت أكثر من مرة ، وما زالت تعرض بواسطة ممثلها فى مصر على الحكومة المصرية أن تعقد معها ميثاق صداقة وعدم اعتداء . ويقال إنها تقدمت إلى الحكومة المصرية بمثل هذا العرض حتى قبل أن تعقد المعاهدة المصرية الانكليزية

ومصر تغتبط بلا ريب بمثل هذه التأكيدات الودية من جانب حكومة رومة ، وتود لو أنها تستطيع أن تؤمن بها وتطمئن إليها

ولكن مصر لا تستطيع أن تؤمن ولا أن تطمئن ؛ ولها فى ذلك أكبر العذر ؛ فالتاريخ يعيد نفسه دائماً ، وشواهد الماضى قرائن الحاضر ؛ ولإيطاليا الحديثة فى نقض المواثيق والعهود تاريخ متصل لم تنقطع حلقاته حتى اليوم ؛ وهو يدل دلالة واضحة على أنه إذا كانت إيطاليا الحديثة الناشئة قد آثرت مدى نصف قرن أن تجرى على سياسة انتهاز الفرص ونقض العهود ، فإن إيطاليا الفاشستية التى تجيش بمختلف المطامع والأمانى لا يمكن أن تكون أحفظ للعهد وأجدر بالثقة والاطمئنان

وإليك منطق التاريخ الحاسم : لم تكد إيطاليا الفتية تستكمل وحدتها واستقلالها فى أواخر القرن الماضى حتى أخذت تساورها نزعة الاستعمار والتوسع ، وتلتمس لتحقيقها جميع الخطط والوسائل ؛ وكانت تتردد يومئذ بين فرنسا وألمانيا لترى أى الناحيتين أكفل للغنم ؛ وكان وزيرها الشهير كرسبي رجل المطامع والمغامرات ، بل يمكن أن يقال إنه هو الذى وضع أسس سياسة التوسع التى تنزل إيطاليا إلى ميدانها اليوم . فلما احتلت فرنسا تونس فى سنة ١٨٨٠ اضطرمت إيطاليا سخطاً لأنها كانت تطمع فى احتلالها ؛ وتحول كرسبى إلى ألمانيا خصيمة فرنسا يخطب ودها ، وانتهى الأمر بدخول إيطاليا فى المحالفة الثنائية الألمانية النمسوية التى غدت المحالفة الثلاثية من ذلك الحين (سنة ١٨٨٢) ثم تجددت فى سنة ١٨٨٧ ؛ ولبثت قائمة حتى نشوب الحرب الكبرى

ولكن ما الذى حدث عند نشوب الحرب الكبرى ؟ التمست إيطاليا الوسيلة لنقض عهود تحالفها مع الدول الوسطى والتزام الحيدة أولا ، ولم يمض عام حتى انقلبت إلى الحلفاء . ثم انضمت إليهم وأعلنت الحرب على حليفتيها القديمتين لتشترك مع الحلفاء فى تحطيم الامبراطورية النمسوية والاستيلاء على نصيبها من أسلابها

وحصلت إيطاليا على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة ؛ وكانت أوفر الحلفاء حظاً فى أوربا لأنها فضلاً عن الفوز بتحطيم الامبراطورية النمسوية جارتها القوية وخصيمتها القديمة ، استولت على التيرول الجنوبي واستيريا ودلمانيا ، وكفلت بذلك حدوداً منيعة فى الشمال والشرق

ثم قامت الفاشستية الايطالية ولم يرضها ما حصلت عليه إيطاليا من أسلاب الحرب ، بل اعتبرته غبناً لها وانتقاصاً لحقوقها فشهرت سياستها المعروفة فى سبيل التوسع الاستعمارى ، وعززتها بالتسلح والأهبات العسكرية العظيمة ، وأخذت تترقب الفرص لتحقيق مشاريعها وأمانيها

وكانت إيطاليا قد عقدت منذ سنة ١٩٠٦ معاهدة ثلاثية مع بريطانيا العظمى وفرنسا تقضى بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها فى شرق أفريقية ، وتنص على وحدة الحبشة واستقلالها مع التنويه بمصالح إيطاليا فى الحبشة ؛ وجددت هذه المعاهدة فى سنة ١٩٢٥ . وفى سنة ١٩٢٨ عقدت إيطاليا مع الحبشة معاهدة صداقة وتحكيم ، وجددت عهودها للحبشة باحترام استقلالها ووحدتها ، وكانت إيطاليا من أشد المؤيدين لدخول الحبشة عصبة الأمم

ولكن الفاشستية الإيطالية كانت فى الوقت الذى تقطع فيه على نفسها هذه العهود والمواثيق تتحين الفرص ، وتدبر اعتداءها سراً على الحبشة ، حتى إذا سنحت الفرصة نفذت مشروعها الاستعمارى على مرأى ومسمع من العالم ، ولم تبال بمواثيق أو عهود ، وسخرت من كل اعتراض أو احتجاج ، وتم لها ما أرادت من القضاء على حريات أمة آمنة مستقلة

ولما اضطرمت الحرب الأهلية الأسبانية ظهرت إيطاليا الفاشستية من وراء الثوار تشد أزرهم وتذكى أوار الحرب بجنودها وسلاحها ، وما زالت تمضى فى سياستها حتى اليوم تنفيذاً لمآرب ومشاريع استعمارية تبغى اجتناءها . ولما نظمت اليابان اعتداءها الأخير على الصين بادرت إيطاليا بإظهار عطفها وتأييدها لليابان المعتدية لأنها تسير فى نفس السياسة الاستعمارية التى تسير عليها

هذا هو ماضى إيطاليا ، وهذا هو حاضر الفاشستية الايطالية فى نقض العهود والمواثيق وتمزيق المجتمعات ، وفى ترقب الفرص غير المشروعة وتنظيم الاعتداءات الاستعمارية

والواقع أن الفاشستية الإيطالية لا تنكر جنوحها إلى هذه الخطط ، فهى تنادى علناً بأن الحق للقوة وحدها ، وتسخر من كل عهد أو ميثاق أو حق لا تؤيده القوة ، وهى تجرى على سياسة مكيافيلية خالصة تبرر لتحقيق الغاية كل الوسائل

فكيف تستطيع مصر بعد ذلك كله أن تثق بتأكيدات رومة الودية وتطمئن إليها ؟ إن التاريخ يعيد نفسه دائماً ، ومصر ترجو ألا تكون ميداناً للوثبة القادمة

ومصر لا يمكن أن تطمئن إلا لنفسها ومقدرتها على الدفاع عن كيانها ، وهى تشعر شعوراً صادقاً بالخطر الذى يلوح لها فى الأفق ؛ ولكن مصر تثق أيضاً فى مستقبلها وطالعها ، وتعتزم ألا تسمح لأحد بالاعتداء عليها . ومن حسن الطالع أنها تستطيع أن تعتمد فى مثل هذا الظرف على معاونة صديقتها وحليفتها العظيمة بريطانيا العظمى . ومن حسن الطالع أن مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا تتفقان هنا وتمتزجان ؛ فالاعتداء على مصر يكون فى نفس الوقت اعتداء على ما تعتبره بريطانيا مركزاً حيوياً لمواصلاتها الإمبراطورية

على أن مصر يجب أن تعمل منذ الآن للاعتماد على نفسها قبل كل شىء ، فنحن فى عصر القوة لا فى عصر الحق ، ويجب أن تتذرع الأمم للذود عن حرياتها وكيانها بكل ما تدخر من القوى المادية والمعنوية ؛ وهذا ما ستفعله مصر بلا ريب

ثم إننا نؤمن من جهة أخرى بأن هذه النظم الطاغية والخطط الاستعمارية الباغية التى تصول اليوم فى ميدان القوة والعدوان سوف تبهار متى وقع الاصطدام الحقيق ؛ هذا إذا لم تسارع قبل ذلك إلى تمزيق نفسها بنفسها

(* * *)

مسكين

بين إنجليزى ولبوته

أثر العادة والتدريب فى الانسان والحيوان

كنت قد أبصرت في بعض الصحف صورة شبل مع إنجليزى وطلَّتُه [1] أو لَبُوَته [2] ... وهما يشربان الشاي (أو الشاهى كما يقولون فى الحجاز) والثلاثة : الرجل والرَّجلة وابن الليث يتناظرون [3] صامتين . وفى الصحيفة حديث عن أنس الوحش، فلم أتعجب إذ رأيت هذا المسكين (أعنى الشبل) يقاعد إنجليزيا ، ولم أنكر ، ولم أقل : إن ذلك البريطاني قد تطبع بطبع الأسد الوحشى حتى ائتلفا واصطحبا لأن الانجليزى إنسان من الاناسية والناس لا يحتاجون كما يعرف العارفون إلى تدرب على طبيعة من طبائع الضوارى والكواسر أو الجوارح [4] ، فالقرابات كما حققت علوم كثيرة فى هذا الزمان بين منتسبى القامات اليوم وبين [5] الماشيات على أربع والطائرات والزحافات واشجات قريبات ؛ ووراثة الأجداد البعيدة (بل القريبة) وهي التى يقال لها فى اللسان الأفرنجى L' atavisme ما زايلتهم فى حين ، وما ضاع والحمد لله ... منها شىء ؛ وفى كل يوم ألوف ألوف من الأدلة المثبتة المسكتة ، المخجلة المخزية . وابْل من شئت ممن تفخمهم تفخيماً وتبجلهم تبجيلاً وتحسبهم — وهم من البشر — ملائكة ، فإنه « يكاد أفضلهم رأياً يردّه عن فضل رأيه الرضا والسخط ، ويكاد أصلبهم عوداً تنكأه اللحظة ،

---

(١) طلة الرجل : امرأته ، قال :

وإني لمحتاج إلى موت طلتى ولكن قرين السوء باق معمر

(٢) اللبوة ساكنة الباء غير مهموزة : لغة فى اللبؤة بضم الباء وبالهمزة

(٣) يتناظرون : ينظر بعضهم بعضاً لا إنهم كانوا يتناظرون ويتباحثون فى كتابى (أصل الأنواع) لداروين و (تاريخ الخلق الطبيعى) لأرنست هيكل

(٤) (الضارى) من السباع ماضرى بالصيد ولهج بالفرائس (باز كاسر) وعقاب كاسر ، كسر الطائر ضم جناحه حتى ينقض يريد الوقوع (الجوارح) ذوات الصيد من السباع والطير

(٥) بين تكرر مع المظهر لا كما قال الحريرى فى (الدرة) وغيره والتكرير فى أقوال العرب كثير